

وهذا تدبير شديد، ورغبة فى التباعد عن القتال ما دام ثمة ما يغنى عنه، وبعد ما نزلت الشدائد لبوار تجارتها تهيأت للدخول فى الإسلام، وكان للرسول ﷺ نية أخرى هى أن يلزم المؤمنين الدربة على الحرب وأصولها، وقد تبينت الحكمة فى ذلك من بعد حين اتسع المسلمون فى الفتوح، ورفعوا كلمة الحق بين الخافقين، ورتب على ذلك أن ظهر من القادة من شهد لهم بالبراعة فى قيادة جيوش المسلمين على نظام محكم وأصول معلومة مما تأتى لهم به أن ينصرهم الله فى أكناف الأرض نصراً مبيناً.

ومن هؤلاء الفرسان المغاوير والقادة المظفرين على بن أبى طالب - كرم الله وجهه - وحزمة بن عبد المطلب، وسعد بن أبى وقاص، وأبو عبيدة بن الجراح، وقمين بالذكر أن وجد بينهم من قاموا بمراقبة السرايا وتجهيزها بالزاد والسلاح بل رعوا أسر المقاتلين، ولا شك أن هذا نظام محكم مرعى، ويسعنا القول بأن الغزوات لم تكن رغبة فى التقتيل إنما كانت لها أصول وسنن لا بد من رعايتها^(١).

وما كان ﷺ يطيب نفساً بالقتال بل على النقيض من ذلك كان تواقاً إلى السلم، فموقفه من الحرب موقف من يبغضها بغض من يبغض شيئاً على اضطراره إليه.

إنه كان يسعى إلى السلم جهد المستطاع فقد شاء أن يعجز المشركين عن القتال بأن يوقعهم فى الضيق والشدّة، كما رأينا فى قطع طريق القوافل على قريش، وهذا منه خلق عظيم، وميل ملحوظ إلى الخير وإيثاره على الشر حتى وإن وجب القيام بعمل يراه شراً.

وكان رحيماً رحيماً فى حروبه، فما قتل طفلاً ولا شيخاً ولا امرأة فى خبائها ولا راهباً فى صومعة ولا عاجزاً عن الحرب، وقد رأينا من قبل كيف أوصى أصحابه بذلك وألزمهم به إلزاماً وقد كان مظفراً فى مغازيه، على أنه لم يخض حروباً إلى أن بلغ من عمره ثلاثاً وخمسين سنة اللهم إلا حرب الفجار التى هاجت بين قريش وكنانة، وكان آنئذ فى العشرين من سبه، وفى هذه الحرب لم يشترك فى القتال، بل كان يجمع السهام لعمومته. ولنا أن ندرك من ذلك بما لا يحتفل من شك أن الله هو الذى هياه لمثل هذا ومكنه منه ليصير الدين الحنيف، وقد كان^(٢).

(١) د حسين مؤنس دراسات فى السيرة النبوية ص ٦٥ القاهرة سنة ١٩٨٤م

(٢) د. عبد العزيز عليم: محمد صلى الله عليه وسلم بين الحرب والسلام ص ١٥٤ القاهرة سنة ١٩٨٩م.